الشيوخ والسياسة

للأستاذ عباس محمود العقاد

الشيخوخة زيادة ونقصان

زيادة فى الخبرة والحنكة، ونقصان فى الطاقة والهمة، والأمم السعيدة هى الأمم التى تحسن الانتفاع بجانب الزيادة، وتحسن الحذر من جانب النقصان

أما الأمم التى تهملهما إهمالاً فهى مسرفة مضيعة، قد تفوتها المنفعة ولا تضمن أن تفوتها الخسارة

* * *

فى جزائر الفيجى، على ما يقال، قبيلة تقتل الشيوخ الفانين أو تدفنهم أحياء... لأنهم لا ينفعون فى حرب ولا صيد ولا عمل. وقد يمرقلون أعمال النافعين

أولئك قوم من الهمج لا يحتاجون إلى الرأى ولا يفتقرون إلى عبر الماضى وهى كل ما يعرفه الشيوخ. فإذا بدا لهم أن الشيخوخة ضرر محض وسن عقيمة فلا عجب: هى كذلك بين أمثال هؤلاء الناس

وفى اليابان مجلس للشيوخ الكبارين ينتظم فيه الرجل بعد اعتزاله مناصب الحكم ومعارك السياسة ومطامع الحياة، وقلما ينتظم فيه قبل السبعين أو الثمانين. فإذا أشار بالرأى فإنما ينزع فيه عن غرض قويم لا خبيئة وراءه من طمع ولا ضغينة، أو هكذا يعتقدون هناك فى فضائل الرأى الذى يصدر من مجلس الكبارين، وما نخالهم على الصواب كل الصواب فيما اعتقدوه، لأن المرء قد يطمع لغيره إذا بطلت مطامعه لنفسه، وقد يكون طمعه لابنه أو زوج بنته أو نصيره أشد تمكناً من هواه وأثقل غشاوة على بصره من الطمع الذى كان يطمعه لنفسه فى شبابه

لكن هؤلاء الكبارين ينفعون

ومتى كان لهم بعض النفع فمن الإسراف تضييعه، ومن الواجب تحيز نفعهم وضرهم قبل رفض النفع والضرر جزافاً على السواء

* * *

أما اعتقادنا نحن فى آفات آراء الشيوخ فالحق أنها عرضة لآفتين متلازمتين قد تفسدان كل ما لهم من أصالة وصواب: إحداهما التهيب من الأعمال الجسام، والثانى الحرص على العادة المتبعة والاستخفاف بكل شىء لا يضمون أيديهم عليه، ولا يملكون تصريفه مع خلفائهم فى الميدان

وقد خطر لى هذا الخاطر يوم نقل البريد الإنجليزى إلينا أقوال لويد جورج وأحاديثه التى يذكر فيها أنه يناقش الرسائل كل يوم بتعجيل مؤتمر السلام، وأنه يرى «أن تتولى الولايات المتحدة عقد هذا المؤتمر، وألا يكون أساس البحث فيه عودة الحدود البولونية والتشيكية إلى ما كانت عليه قبل احتلال الألمان، بل ضمان الوسيلة التى يتحقق بها دوام السلام بين شعوب العالم»

عجبت لهذا الرأى يصدر من الرجل الذى ألّب الدنيا على غليوم الثانى، وهو لم يبلغ مبلغ هتلر من إقلاق الشعوب وإهدار العهود وإزعاج الشرق والغرب بالتهديد وراء التهديد، والإرهاب فى ذيل الإرهاب

عجبت لمثير الأمم كلها إلى الحرب كيف يحجم هذا الإحجام، ويراع هذا الارتياع، ويحسب أن الحرب شر من العواقب التى لا تنقطع فيها الحروب ولا تهدأ فيها الفتن لو نجح هتلر فيما ابتغاه وفقدت الشعوب كل سند تستند إليه حيثما جمح به هواه، وعاد إليه ديدنه ومجيراه؟

أهذا لويد جورج الذى كان يقسم لا يتركن غليوم حتى يشد بيديه حبل مشنقته فى العاصمة الإنجليزية؟

أهذا لويد جورج الذى كان يقسم ليفتشن جيوب الألمان فرداً فرداً عن بقية الدراهم الباقية عليهم من غرامات الهزيمة؟

كلا! إنما لويد جورج الذى يقول هذا هو كما قال شاعرنا العربى:

فكأننى وما أزين منها ... قمدىٌ يزين التحكيما

لا ينصح بالسلام إلا كما ينصح الرجل بالعفة إذا خمدت فيه نار الغرام. أو هو كما قال خصومه «لويد جورج فى السادسة والسبعين»!

أما لويد جورج الذى شن الغارة العالمية على غليوم الثانى فقد كان رجلاً آخر، لأنه كان لويد جورج فى نحو الخمسين وشتان اللويدان!

وشتان كل إنسان يتعاقب عليه هذان العمران

* * *

ولقد كان لهذا الشيخ الكبار أخ له من قبل كان أعظم منه شأناً وأرفع فى الخدمة الوطنية رتبة وأخلد سابقة فى سجلات وطنه وسجلات العالم بأسره

لأن لويد جورج هزم غليوم

أما أخوه السابق فقد هزم نابليون الكبير

ولأن لويد جورج هزم غليوم فى ديوان الوزارة أو على منصة الخطابة

أما أخوه السابق فقد هزم نابليون الكبير بالرأى والسيف ، أو هو كان ظافراً فى الميدان كما كان ظافراً بعد ذلك فى الديوان

ولأن لويد جورج لا ينسى المناورات السياسية والمفاجآت المسرحية

أما أخوه السابق فقد كان مثلاً فى صراحة القول وصراحة العمل ، وكان نموذجاً من نماذج الفروسية فى غزواته الحربية أو غزواته الوزارية

ذلك الأخ السابق كما علم القارئ الآن هو ولنجتون القائد السفير الوزير

وقد هزم نابليون وهو فى الخامسة والأربعين ، ثم ساورته مخاوف الهرم فقال بعد أن جاوز الثمانين : « إنه يحمد الله الذى حماه أن يعيش حتى يرى عاقبة الخراب الذى تتجمع حولهم دواعيه » !

ولنجتون فى الخامسة والأربعين غير ولنجتون فى الثالثة والثمانين

ولويد جورج فى السادسة والسبعين غير لويد جورج فى الخمسين

ولا بد للشيخوخة من آفة وهى هى اضمحلال الحياة

وهذه هى آفة الشيخوخة لا سواء

* * *

على أنها ليست آفة الشيخوخة وحدها فيما يرجع إلى صاحبنا لويد جورج

لأن الرجل كان فى الخامسة والسبعين قبل عام واحد وبين الفرق عظيما بين شيخ فى الخامسة والسبعين وشيخ فى السادسة والسبعين

كان لويد جورج شيخاً كباراً فى شهراً كتوبر من السنة الماضية

وكان لا يكف يومئذ عن تحذير رئيس الوزراء من الضعف والهوادة « مخافة أن نخون الشرف وأن نفقد ثقة العالم . بل شر من ذلك وأدهى أننا نفقد الثقة بأنفسنا . ثم لا يكون سلام بعد هذا كله فى خاتمة المطاف ! »

فالذى يقول هذا فى الخامسة والسبعين خليق أن يقول مثله فى السادسة والسبعين

عام واحد لا ينقل الإنسان هذه النقلة ، ولا ينال من عزيمته هذا المنال

فالشيخوخة على كثرة آفاتها براء مما نجنيه عليها حين نلقى عليها وحدها تبعة الخلاف فى الرأى إلى هذا المدى بين عام وعام

إنما هناك أمور أخرى تعمل عملها وتسبق الشيخوخة إلى آفاتها

إنما هناك شعور الرجل من قبل فرنسا لم يفارقه منذ كانت سياستها فى حرب الأناضول سبباً من أسباب فشله وزوال عهده

وإنما هناك شعور الرجل من قبل ألمانيا وما أبقته فى قلبه زيارته لزعمائها

وإنما هناك حب اللام ممن يده فى الماء لمن يده كما يقولون فى النار .

وإنما هناك مفاجآت لويد جورج ، ولا غنى للرجل عن مفاجآت

* * *

لقد حوسب الرجل بعد خطابه حساباً عسيراً :

حاسبوه على تبشيره بالمحالفة الروسية ، وتبشيره من قبلها بالمحالفة الألمانية ، وتبشيره بكل خطة تخالف ما خطته الوزارة القائمة ، ثم يكون الفشل من نصيبها ويبدو العقم على وجهها قبل أن تنحدر إلى عقابيلها

حاسبوه ولم يظلموه

وحاسبوا الشيخوخة وظلموها فى غير ذنبها

وإن يكن للشيخوخة ذنب فمن الشيخوخة شفيع !

عباس محمود العقاد